النظرية الجشطلتية *

بقلم

مصطفى سويف

فى أوائل النصف الثانى من القرن الـ ١٩ كان التفسير الميكانيكى لظواهر الوجود المختلفة هو السائد فى الدوائر العلمية[1]. فكل ظاهرة تواجه الباحث ما عليه إلا أن يحللها إلى عناصرها الأولية ، فإذا تم له ذلك فقد عرف طبيعتها الجوهرية ، وما عليه إلا أن يجمّع هذه العناصر بعضها إلى بعض وعندئذ ستعود الظاهرة إلى الوجود ، ومجموع معلوماته عن العناصر يكوّن العلم بقوانين هذه الظاهرة .

والنزعة الترابطية associationism هى – بمعنى ما – نتاج هذه النظرة فى ميدان علم النفس ، ويجب أن نوسع هنا معنى الترابطية حتى تشمل أيضاً التعليل بسلاسل الأفعال المنعكسة والأفعال المنعكسة الشرطية . وخلاصة هذه النزعة أن الوقائع النفسية سواء أكانت خبرات نتلقاها أم أفعالا نقوم بها ، تتألف من عناصر أولية هى الإحساسات المباشرة فى حالة الخبرات وهى التنبيهات والاستجابات فى حالة الأفعال ؛ وأن تعرُّف قوانين التداعى فى الحالة الأولى وقوانين التنبيه والاستجابة وما قد ينشأ بين بعض الاستجابات وبعض المنبهات من ارتباطات شرطية هى مهمة علم النفس .

غير أن معظم علماء النفس فى تلك الفترة بل وقبلها بعشرات السنين كانوا يشعرون بأن الترابطية تحمل فى طياتها كثيراً من التعسف والافتعال artificiality وأن الحياة النفسية فى الواقع تختلف كثيراً عما يتقرر عنها فى الكتب وفى المعامل السيكولوجية . وكان بعض هؤلاء العلماء يبدى تحفظه بأن يقدم بعض التعديل لجوانب فى الترابطية ولكنه تعديل طفيف لا يمس جوهرها فى قليل ولا كثير ؛ ومن هذا

* محاضرة ألقيت فى جمعية الدراسات النفسية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، فى مارس سنة ١٩٥١ .

(١) « معنى التكامل الاجتماعى عند برجسون » بقلم مصطفى سويف – مجلة علم النفس – مجلده عدد٢

الطراز من العلماء توماس براون T. Brown وجون ستيوارت مل J. S. Mill ؛ والبعض الآخر حاول أن يفعل شيئاً أكبر من ذلك وأقوى ، حاول أن يصيب الترابطية فى الصميم ، ومن هؤلاء فلورنز P. Flourens وبنيكه F. Beneke ؛ ولكن للقضاء على نظرية علمية قائمة أو بالأحرى للقضاء على منهج علمى ذائع — لأن التفسير الميكانيكى ليس نظرية بل هو منهج — لا يكفى أن تقدم الحقائق التى تدحض أو الحجج التى تبين خطأه ونقصه ، بل يجب أن تقدم منهجاً آخر بدلا منه . ولكن هذا لم يتيسر لفلورنز وبنيكه ، فظل الميدان خلواً أمام الترابطية .

وفى أواخر القرن اشتد الشعور بضعف التفسير الميكانيكى ، لا فى ميدان علم النفس فحسب بل وفى سائر الميادين العلمية أيضاً ؛ إلا أن ضعفه ونقصه كان أوضح فى العلوم التى تتناول الحياة موضوعاً لها . وقد ظهر لكثير من العلماء والمفكرين أن الحياة لا تقبل هذا التقسيم أو التحليل . فالكائن الحى إذا تناولناه بنظرة تحليلية كان لزاماً علينا أن نتناوله بالتشريح لننظر فى أعضائه عضواً عضواً ، ولننظر فى أنسجة كل عضو نسيجاً نسيجاً ؛ ولكن مثل هذا التناول من شأنه أن يقضى على الحياة نفسها ، ومن ثم فستفلت الحياة من المعمل وستبقى أمامنا أنسجة ميتة ، وتلك مادة أخرى غير مادة البحث التى قصدنا إليها أصلا وهى « الكائن الحى » . وظواهر الحياة النفسية أمرها كأمر هذه الحياة البيولوجية . خذ الشخصية مثلا ، وحاول أن تحللها إلى عناصرها الأولية ، ثم انظر فى مجموعة الصفات أو الخصائص التى انتهيت إليها ، فستجدها قليلة الجدوى فى معرفتك للشخصية من حيث هى بناء له وحدته وتكامله ، وستظل قليلة الجدوى حتى ولو زادت عشرة أضعاف حجمها الحاضر ، وذلك لأن للشخصية من حيث هى « بناء » صفات وخصائص لا تتوفر فى أى جزء من أجزائها ، كأن تقول مثلا إنها شخصية مرنة ، أو هذه شخصية سريعة التقلب ، أو هى شخصيه متحجرة فتلك صفات لا تصدق على أى جزء من أجزائها ولكنها تصدق عليها ككل .

هذه الآراء وما إليها ، عن وحدة الحياة وعدم قابليتها للتقسيم أو التحليل كانت تدور بأذهان بعض العلماء فى أواخر القرن الـ ١٩ ، وكانت تجد الكثير مما يؤيدها ، وكانت تبحث عن منهج يلائم هذه الزاوية الجديدة التى تنظر منها ويستطيع أن يقف فى وجه النظرة الميكانيكية لينجز ما تعجز عنه بطبيعتها .

واستجابة لهذه الحاجة ظهرت الفلسفة الحيوية Vitalism ، تدعو إلى اعتبار الحياة وحدة متصلة وعدم تناولها بنظرة تحليلية ، وكان من أكبر دعاتها دريش H. Driesch وبرجسون H. Bergson . إلا أن الفلسفة الحيوية لم تقدم منهجاً علمياً آخر لدراسة الحياة ، بل لقد ثارت على العلم من حيث هو علم. لأنها اعتبرت النظرة الميكانيكية جوهره ولُبه ، ولما كانت الحياة بطبيعتها لا تقبل هذه النظرة ، فمعنى ذلك أن الحياة لا يمكن أن تكون موضعاً لدراسة علمية. وقالت الفلسفة الحيوية إن الكائن الحى يتألف من جوهرين : مبدأ الحياة وهو مبدأ التكامل والوحدة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى الجسم ، أى المادة التى تقبل التقسيم والتحليل . ومن ثم فللعلم أن ينظر فى المادة ولكن ليس له أن ينظر فى مبدأ الحياة والتكامل والوحدة .

على أن الفلسفة الحيوية بموقفها هذا أثبتت أنها هى نفسها فلسفة ميكانيكية ، فهذا التقسيم إلى جوهرين متجاورين لكنهما غير متفاعلين ، وتقسيم خصائص الكائن إلى خصائص تأتى عن مبدأ الحياة وأخرى تأتى عن المادة أو الجسم[1]، هو بعينه الفلسفة الميكانيكية وإن بدت فى ثوب جديد .

وإذاً فقد ظل ميدان علوم الحياة بحاجته الأولى ، حاجته إلى منهج جديد غير المنهج التحليلى الميكانيكى . وظهرت فى نهاية القرن الـ ١٩ وأوائل العشرين بحوث ونظريات سيكولوجية تعتبر إلى حد كبير محاولات للخروج على الميكانيكية ، ومن هذا القبيل نظريتا التحليل النفسى والغرائز ، إلا أن هاتين النظريتين رغم التقدم الذى حققاه للبحوث النفسية ، لم يتمكنا من تحقيق التقدم الحاسم المنشود ، بل لقد تسربت إليهما كثير من خصائص الفلسفة الميكانيكية .

وفى العقد الثانى من القرن العشرين ظهرت بوادر النظرية الجشطلتية ، ظهرت استجابة لهذه الحاجة العلمية السائدة ، ولا يكفى أن نقول مع وودورث R.Woodworth إنها ظهرت كثورة على الترابطية ، لأن الثورة يجب أن تكون استجابة لحاجات سائدة حتى يقدر لها النجاح ، وإلا فستمضى دون أن تخلف أثراً كبيراً .

النظرية الجشطلتية ثورة ، واستجابة ، وتبلور . ثورة على منهج ميكانيكى سائد ،

---

(١) « التأملات » لديكارت — ترجمة الدكتور عثمان أمين — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة سنة ١٩٥١ — ص ٢٣٤

واستجابة لحاجة إلى تغيير هذا المنهج والعدول عنه ، وتبلور لمحاولات متفاوتة الحظ من التوفيق والفشل فى توفير المنهج الجديد الذى سيحل محل المنهج القديم . فهى بهذا المعنى وثبة وتطور كيفى فى تاريخ علم النفس .

يؤرخون بوادرها بالبحوث التى أجراها فرتهيمر فى الحركة سنة ١٩١٢ . فقد تبين له بالتجربة أننا قد نرى شيئاً ما يتحرك مع أنه فى الواقع لا يتحرك ، كما يحدث عند ما نرى الأشخاص فى الفيلم السينمائى يذهبون ويجيئون ، مع أن الشريط السينمائى لا يحتوى إلا على صور لأوضاع ساكنة . فلنفرض أننا تناولنا هذه الحركة الظاهرية بنظرة تحليلية ، فسنقضى عليها عندئذ ، لأننا لن نجدها فى أى عنصر من العناصر التى ستنتهى إليها من التحليل ، لن نجد سوى صور لأوضاع ساكنة ، وبالتالى إحساسات متتالية بأوضاع ساكنة . لابد إذاً من منهج آخر لبحثها ، ويشترط فى هذا المنهج أن يتناولها ككل ، أى كما تظهر فعلا ، حتى لا يقضى عليها أو يشوهها . يجب أن يكون فى مقدور المنهج الجديد أن يتناول الظاهرة كوحدة لا كمجموعة وحدات .

وشغل فرتهيمر M. Wertheimer وكهلر W. Kohler وكوفكا K. Koffka ، بتوضيح جوانب هذا المنهج الجديد ؛ وفى العقد الثالث من القرن العشرين بدأت تظهر المقالات المنهجية المنتظرة . وبدأ علماء النفس يشعرون بأهمية هذا التيار الجديد . وقيض لهذا التيار نوعان من العقول لا يدمنهما معاً إذا لم تتوفر خصائصهما لعقل واحد ؛ فقرتهيمر الأستاذ الأكبر يمثل العقل الملهم ، العقل الذى يلهم بومضات متقطعة لكنها باهرة النور ، وكهلر وكوفكا ولڤين K. Lewin يحاولون الاهتداء على ضوء هذه الإلهامات واستغلالها كمفاتيح للبحث واستخلاص إمكانياتها ، كل ذلك دون أن يفوتهم أن التجربة الحاسمة هى الحكم الفصل فى النهاية .

فالنظرية الجشطلتية ليست مجرد نظرية فى علم النفس ، بل هى ليست نظرية بالمعنى الضيق للكلمة ، إنها اتجاه أو منهج فكرى نستطيع على ضوئه أن نقيم عدة نظريات ، لا فى علم النفس فحسب ، ولا فى الدراسات النفسية والاجتماعية فحسب ، بل فى هذه وفى الدراسات البيولوجية والفيزيولوجية والفيزيقية أيضاً . فهى بهذا المعنى تختلف اختلافاً حاسماً عن سائر النظريات التى يرد ذكرها فى تاريخ علم النفس ، فيما عدا الترابطية ، التى تمثل هى الأخرى منهجاً علمياً عاماً . على أن هذا التشابه الشكلى مع الترابطية ، يخفى وراءه اختلافاً حاسماً فى المضمون .

جوهر النظرية الجشطلتية يمكن تلخيصه فيما يلى :

هناك أبنية أو أجهزة أو كليات wholes لا يتحدد سلوكها على أساس سلوك عناصرها كل عنصر على حدة ، بل على الضد من ذلك نجد أن سلوك هذه العناصر يتحدد على أساس سلوك الكل أو البناء العام (١) .

هذه هى المشكلة الرئيسية التى تواجه علماء الجشطلت ، ومن ثم فقد حددوا مهمتهم بأنها محاولة التعرف على سلوك البناء أو الجشطلت . وعن طريق هذه المعرفة سنعرف سلوك الأجزاء . فعلماء الجشطلت لا ينكرون وجود الأجزاء ، ولكنهم ينكرون القول بأن هذه الأجزاء عناصر منعزلة بعضها عن بعض ، وبالتالى ينكرون أوليتها على البناء الذى يضمها . ينكرون أن سلوك البناء هو مجموع حركاتها .

على أن النظرية الجشطلتية لا تقحم نفسها فى تأملات نظرية ومناقشات بيزنطية، هى لا تناقش المشكلات الجوفاء ، لا تناقش مثلا مشكلة الأسبقية : هل الكل سابق على الأجزاء أم الأجزاء سابقة على الكل ؟ لا تناقش هذه المشكلة وأمثالها لأنها لا تقصد إلى مجرد التمرين العقلى والجدل اللفظى ؛ إنما تقرر فقط أن سلوك الكل يعيّن سلوك الأجزاء ، وهذا القرار بمثابة الفرض العلمى ، تقيمه على أساس بعض التجارب وبعض المشاهدات العامة النافذة ، ثم تتخذ منه مفتاحاً لتناول عدة مشكلات فى عدة ميادين مختلفة ، والكلمة الأخيرة فى النهاية ، للتجربة الحاسمة .

لا يكفى أن نقول إن الخبرة الإدراكية كل أو جشطلت ، ولا يكفى أن نقول إن الشخصية كل أوجشطلت ، أو إن المجتمع أو النظام الشمسى كل أوجشطلت ، فهذه العبارات وحدها جوفاء، يجب أن نبين أى نوع من الكل هذه الخبرة أو هذه الشخصية أو هذا المجتمع أو هذا النظام الشمسى ؛ هل هو كل متجانس أم كل غير متجانس ، بسيط أم مركب ، استاتيكى أم ديناميكى ، منعزل عن بيئته أم يؤلف معها كلا أكبر ، وهل تكون علاقته بهذه البيئة واحدة دائماً أم تتغير من حين لآخر ، وإذا كانت تتغير فكيف ؟ وهل البيئة نفسها بناء له وحدته أم مجموعة من العوامل فحسب . وهكذا وهكذا . أسئلة لا نهاية لها لا يحسمها إلا البحث التجريبى . فالقول بأننا بصدد جشطلت ليس نهاية بحث ، بل هو بداية بحث ، لاستخلاص قوانين هذا الجشطلت .

(١) "Gestalt Theory", M. Wertheimer, ("A Source Book of Gestalt Psychology", ed. by W. Ellis, London, 1938, K.P.)

وهكذا بدأ العلماء الجشطلتيون سلسلة من البحوث التجريبية ، مستلهمين هذا الفرض العلمى الكبير .

١ – أجرى فرتهيمر بحوثاً تجريبية فى الإدراك . فانتهى إلى أن الخبرة الإدراكية ليست مجرد تجميع لعدد من التنبيهات التى نتلقاها ، بل هى تنظيم لهذه التنبيهات ، على أساس مجموعة من القوانين ، أهمها : قانون التقارب وقانون التشابه وقانون الشكل والأرضية وقانون الاستمرار الجيد . كما أثبت أن أثر الخبرة الماضية فى تكييف إدراكنا للأشياء أثر محدود ولا يمكن الالتجاء إليها فى كل الأحوال . والمهم فى هذه التجارب أنها تثرى فكرتنا عن الكل ، فالخبرة الإدراكية بوجه عام جشطلت ، ولكنا نتلقى خبرات كثيرة متنوعة ، من نفس المجموعة من العناصر أحياناً ، فما شروط ظهور هذه الخبرة أو تلك ؟ الجواب فى قوانين التنظيم التى توصل إليها (١) .

٢ – وأجرى كهلر مجموعة من البحوث التجريبية فى الإدراك أيضاً ، ولكن على الدجاج . وذلك ليتبين هل الخبرة الإدراكية هى فى جوهرها جشطلت ، أم أن هذه الخاصية فيها متوقفة على عمليات عقلية عليا يجريها الشخص كالاستنباط والاستدلال . أتى بمجموعة من الدجاج وكان يواجهها بإناءين أحدهما رمادى قاتم والآخر رمادى فاتح ، وكان يضع لها الغذاء فى الإناء القاتم ، فلما تعلمت ذلك بعد عدة مرات كانت تقصد مباشرة إلى الإناء القاتم دون أن تتخبط . وكان معنى ذلك فى نظر علم النفس التقليدى الميكانيكى – وعند السلوكيين بوجه خاص – أنه قد تكون لدى الدجاج ارتباط شرطى بين هذا اللون القاتم وبين إشباع الجوع . فتقدم كهلر لامتحان هذا التفسير بأن أحدث تغييراً فى بيئة الإناء القاتم ، إذ أبعد الإناء الفاتح ووضع بدلا منه إناء آخر رمادياً ولكنه أقتم من الإناء الذى اعتاد الدجاج أن يقصده ليجد الطعام فيه ، وعندئذ قصد الدجاج إلى الإناء الأقتم ولم يقصد إلى الإناء القاتم . وهذا السلوك لا يمكن تفسيره على ضوء الفعل المنعكس الشرطى . إن الدجاج لم يدرك إناء الطعام باعتباره ذا لون معين فحسب ، ولكنه أدركه كجزء فى جشطلت ، أدركه باعتباره « الأقتم » ، ومن ثم فقد استجاب فى التجربة الحاسمة للإناء الأقتم (٢) .

(١) "Laws of Organization in Perceptual Forms", M. Wertheimer, ("A Source Book of Gestalt Psychology", W. Ellis).

(٢) "Simple Structural Functions in the Chimpanzee and in the Chicken" W. Kohler, ("A Source Book of Gestalt Psychology", W. Ellis).

ومعنى ذلك أن الخبرة الإدراكية من حيث هى جشطلت ، لا تتوقف على قيام الوظائف العقلية العليا .

٣ – وأجرى لفين عدة بحوث فى موضوعات الفعل والإرادة والشخصية . فانتهى إلى أنه لا يمكن معالجة أية عملية سلوكية دون اعتبار :

(ا) الخصائص الإلزامية لجوانب البيئة المختلفة ، ويطلق عليها اسم valences .

(ب) والطاقات النفسية لدى الكائن .

وبدون الأولى لا نستطيع أن نتكلم عن ضبط السلوك وتوجيهه ، وبدون الثانية لا نستطيع أن نعلل اندفاعه[١] .

إن هذا الرأى من لفين قد يبدو بديهياً ، وقد قال كثير من علماء النفس بما يشبهه ، قالوا إننا فى تعليلنا للسلوك يجب أن نحسب حساب إمكانيات البيئة واستعدادات الكائن ؛ ولكن العبرة بالمضمون . العبرة بالخطوات التى سيرتبها الباحث على مثل هذه القضية العامة . قال مكدوجل مثل هذه العبارة ، ولكنه عاد فتكلم عن الغرائز ، وبذلك حطم جوهر القضية الدينامية . والسلوكيون فعلوا عكس ما فعل ، فنسوا استعدادات الكائن واقتصروا على الاهتمام بالمنبهات ، وما على الكائن إلا أن يستجيب كأنه آلة .

أما النظرية الجشطلتية فلا ترى انفصالا بين الكائن والبيئة ؛ ولذلك تقدم تفرقة هامة بين معنيين للبيئة ، البيئة الجغرافية والبيئة السلوكية ، واصطلاح البيئة الجغرافية يشير إلى محيط الكائن لا من حيث إن هذا المحيط يؤثر فى السلوك ولكن من حيث هو موجود ، أما البيئة السلوكية فتشير إلى هذا المحيط من حيث تأثيره فى السلوك ، من حيث إنه مجموعة من القوى توجه السلوك هذه الوجهة أو تلك . والدلالة التى تظهر بها البيئة فى السلوك تتوقف من ناحية على بعض خصائص البيئة الجغرافية ومن ناحية أخرى على حالة الكائن الراهنة . فأنا عند ما أرى طعاماً قد أراه كهدف أسعى إليه ، هذا إذا كنت جوعاناً ، أما إذا كنت شبعاناً فإنى لا أراه كهدف ، بل ربما رأيته كشىء منفر يجب أن أبتعد عنه . فالبيئة السلوكية لا بد أن توصف دائماً بأنها سيكوفيزيقية ولا بد أن ندركها على أنها ذات « قيمة » لا على أنها موجودة فقط .[٢]

---

(١) "On The Structure of The Mind", K. Lewin, ("A Dynamic Theory Personality", K. Lewin, New York, 1935, McGraw-Hill).

(٢) "Principles of Gestalt Psychology", K. Koffka, New York, 1935, H. Brace.

أما الشخصية فليست آلة تحمل عدة مفاتيح كلما لمسنا مفتاحاً ظهرت نغمة معينة ، مفتاح الغريزة الجنسية ومفتاح غريزة القطيع ومفتاح غريزة القتال وهكذا ؛ الشخصية ليست آلة سلبية . قد أوجد فى موقف أسمع فيه كلمة فأندفع إلى القيام بنشاط هائل ، أكون مشغولا على أحد أصدقائى لأنى أعلم أنه مريض بدرجة يخشى على حياته منها ، وأقابل صديقاً آخر مصادفة فيقول لى لقد رأيت صديقنا المريض هذا الصباح وهو « اليوم متعب » ، فتدفعنى هذه العبارة فى هذا الموقف إلى إلغاء مواعيدى السابقة بل وربما الاعتذار عن عملى والذهاب فى الحال إلى حيث يرقد صديقى المريض للاطمئنان عليه . ولو أننى سمعت نفسى العبارة عن نفس الصديق ولكن فى موقف آخر ليست فيه هذه المشغولية السابقة ، فسأتلقاها بهدوء وربما لا أكلف نفسى مشقة السؤال عليه .

وهكذا لا نستطيع أن ننظر فى سيكولوجية الفعل بالاقتصار على مقومات البيئة الخارجية ، بل لا بد لنا من النظر فى حاجات الشخصية ومخاوفها وآمالها ، بعبارة أخرى لا بد لنا من النظر فى « توترات » tensions الشخصية . ومن هنا يبدو بوضوح كيف أنه لا يمكن الاقتصار على القول بأن الشخصية وحدة دينامية ، لأن هذا القول يوحى بأنها وحدة متجانسة بسيطة ، مع أن هذا غير صحيح ؛ فقد أجرى لفين بعض التجارب واستعان بتجارب تلامذته ومن أهمها مجموعة التجارب التى أجرتها تسيجارنيك Zeigarnik فى « الفرق بين تذكر الأعمال التامة والأعمال المبتورة »(١) وانتهى إلى أن الشخصية وحدة مركبة من عدة وحدات صغرى ، فهى جشطلت مركب من عدة جشطلتين Gestalten وهذه الوحدات الصغرى منتظمة فى نظام معين وليست متجمعة أياً مّا كان التجمع . ومن ثم فإن هذه الوحدات الصغرى لا تستطيع الاتصال ببعضها البعض بنفس السهولة دائماً وفى كل المواقف . إن لها حدودها التى تميزها بعضها عن بعض ولو أنها لا تعزلها ، وهذه الحدود قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة وقد تثبت على قوتها فى بعض المواقف وقد لا تقوى على الثبات فى مواقف أخرى . وأبسط توضيح لهذا ما نلاحظه من أننا نحمل فى نفوسنا حاجات كثيرة ، ولكننا نؤجل بعضها لنشبع البعض ، فهل يضيعها هذا التأجيل ؟ كلا طبعاً ،

(١) "The Persistence of Motives as Revealed by The Recall of Completed and Uncompleted Activities", ("Recent Experiments in Psychology" ed. by L. Crafts & others; New York 1938; McGraw-Hill).

إنها تظل موجودة فينا ، وتظل حدودها قوية بارزة لتبقى تلك الحاجة متميزة . ويميز لڤين « جشطلتن » معيناً داخل الشخصية ، هو « الذات » حدوده أكثر صلابة وثباتاً ، وهو يميل إلى الاتزان أكثر من سائر الجشطلتن القائمة فى الشخصية . كما أنه يقوم فينا كالنواة عند المركز تحيط بها سائر الأبنية كأنها أغلفة بعضها فوق بعض ، ولذلك فإن مؤثرات البيئة لا تصل إليها بسهولة ، إنها فى كثير من الأحيان لا تمس إلا سطح النفس منا .

ويمضى لڤين يثرى آراءه هذه بالبحوث التجريبية الألمعية ، يعاونه فى ذلك تلامذة وزملاء نوابغ ، من أشهرهم دمبو Dembo ذات البحوث القيمة فى الانفعالات ، وكارشتن A. Karsten التى أجرت بحوثاً فى السأم أو الملل ، وج . ف . براون J. F. Brown الذى أجرى بحوثاً فى كيف أن البيئة تختلف درجات واقعيتها فى المواقف المختلفة .(١)

وتعتبر بحوث لڤين وتلامذته وزملائه مقدمة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لبحوث علم النفس الاجتماعى . وقد حاول ج . ف . براون أن يقيم دعائم علم النفس الاجتماعى على أساسها مستلهماً الفرض الجشطلتى العام ، وذلك فى كتابه « علم النفس والنظام الاجتماعى » ، كما حاول كرش وكرتشفيلد Krech & Crutchfield نفس المحاولة فى كتابهما « علم النفس الاجتماعى ، نظرياته ومشاكله » ، ولكن المقام لا يسمح بتلخيص هاتين المحاولتين .

٤ — وقد تمكن لڤين على ضوء بحوثه وتجاربه فى الشخصية من أن يضع أسس نظرية تعتبر مساهمة لها أهميتها الكبرى فى ميدان علم النفس المرضى ، وهى نظريته فى « ضعاف العقول » . (٢) كما ساهم باحث جشطلتى آخر هو هنريخ شولته H. Schulte فى هذا الميدان أيضاً بنظريته فى « الذهان الهذائى » أو البرنويا .(٣)

وخلاصة هذه النظرية أن أعراض البرنويا يمكن أن تظهر لدى أى شخص يكون فى موقف يدفعه إلى محاولة الاندماج مع الآخرين لتكوين « نحن » دون أن

---

(١) "A Dynamic Theory of Personality", K. Lewin.

(٢) "A Dynamic Theory of The Feeble-Minded"; ("A Dynamic Theory of Personality"). K. Lewin

(٣) "An Approach to A Gestalt Theory of Paranoic Phenomena"; H. Schulte; ("A Source Book of Gestalt Theory").

يستطيع تحقيق هذه المحاولة ، فإذا استمر الموقف كما هو واستمر شعور الشخص بالحاجة إلى النحن فإنه تبدو عليه أعراض البرنويا . وقد استمد شولته هذه النظرية من فكرة عابرة وردت فى بحث لفرتهيمر بعنوان « النظرية الجشطلتية » نشر سنة ١٩٢٤ ، فاتخذ شولته هذه الفكرة بمثابة الفكرة الموجهة لمشاهداته على أسير حرب جريح وضع فى المستشفى العسكرى لدى الأعداء ، ولم يكن يعرف لغة هؤلاء الأعداء ، على أنهم لم يكونوا أعداء فى المستشفى بل كانوا يعاملونه كمريض فحسب . ومع ذلك فقد بدت عليه علامات سوء الظن بهم وتوقع الشر منهم بعد فترة من حلوله بينهم . فلماذا ؟ لأننا عند ما نكون مع آخرين فى مكان واحد لمدة طويلة ونتعرض لنفس التجارب سوياً ، نميل إلى أن تتكون بيننا وبينهم « علاقة ما » ، رابطة ما ، قد نكون معهم « نحن » إذا استطعنا ، فإذا لم نستطع فإننا نربط بيننا وبينهم بصورة أخرى ، « الآخرون ضدى أنا » ، أو « الآخرون من أجلى أنا » ، المهم أننا لا يمكن أن نظل وحدات منعزلة ، بل لا بد من اندماج أنواتنا فى بناء ، وظهور بناء متكامل أو بناء هذائى مسألة تحتمها ديناميات الموقف ككل .

هذه لمحة عابرة ، عن بعض البحوث الجشطلتية ، تستطيع أن تكشف بعض الشىء عن خصوبة هذا المنهج الجديد ، وعن نشاط هذه الفئة من العلماء التى دأبت على تنميته وتطويره . وكان شعارهم دائماً الفكرة الموجهة ثم التجربة الحاسمة . فالنظرية بلا تجربة جوفاء ، والتجربة بلا نظرية عمياء . ولا تقتصر هذه الخصوبة فى المنهج الجشطلتى على علم النفس ، بل لقد ظهرت آثاره فى ميدان البيولوجيا وذلك فى كتاب وودجر J. H. Woodger « المبادئ البيولوجية » ، وفى الفيزيقا تبدو بعض الإمكانيات القيمة على أساس الآراء التى نشرها كهلر[١] ، كما أن هذه الآراء تنطوى غالباً على إمكانيات طيبة بالنسبة للبحوث الفيزيولوجية ، وربما كان من أخصب الفروض هنا فرض الأيزومورفيزم Isomorphism

على أن أهم ما يؤخذ على الجشطلتية أنها لم تقدم لنا منهجاً واضحاً لمعالجة الجانب التكوينى من الظاهرة المدروسة . فمن المعلوم أن تاريخ الشخصية له أثر كبير فى كون حاضرها على ما هو عليه ، أو على أى حال له أثر لا يمكن إنكاره ، وإذا

(١) "Physical Gestalten", W. Kohler, ("A Source Book of Gestalt Psychology").

أمكن الإقلال من أهميته فى حالة الحيوان نظراً لتشابه تاريخ أفراد الفصيلة الواحدة إلى حد كبير ، فإنه لا يمكن الإقلال من أهميته فى حالة الإنسان بوجه خاص ، نظراً لتعقد المواقف الإنسانية وتعدد جوانبها وسرعة تقلبها ؛ وبحوث التحليل النفسى التى إحترمت هذا الجانب التاريخى وأولته معظم عنايتها تكشف عن مدى أهميته وخطورته . إلا أن علماء الجشطلت ، لم يقدموا لنا المفتاح المنهجى لمعالجته ؛ ولا يمكن إنكار قيمة اللمحات العابرة التى قدموها فى هذا الصدد مثل فكرة « الإطار الزمانى[١] »عند كوفكا وفكرة« موقف الحياة » عند لڤين[٢]،ولكن العبرة ليست باللمحات العابرة ، لا بد من مفتاح منهجى . لايكفى أن يُشعرنا الباحث بتنبهه إلى جميع جوانب الظاهرة ، بل يجب أن يبين الطريق إلى معالجة هذه الجوانب .

ويرى بعض الباحثين أن مستقبل علم النفس سوف يزدهر عند ما تلتقى الجشطلتية بالتحليل النفسى ،فالتحليل النفسى يهتم بالماضى أكثر مما يهتم بالحاضر . وعلى الضد من ذلك علم النفس الجشطلتى يهتم بالحاضر أكثر مما يهتم بالماضى . التحليل النفسى علم نفس تكوينى إلى حد كبير ، وعلم النفس الجشطلتى ذو نظرة شبكية إلى حد كبير ، ينظر فى تشابك الموقف الحاضر وتفاعله ؛ فى حين أن علم النفس لن يوفى موضوع الدراسة حقه إلا إذا اتخذ لنفسه منهجاً تكاملياً ، يلائم تكامل موضوع البحث.

مصطفى سويف

(١) "Principles of Gestalt Psychology", K. Koffka.

(٢) "Principles of Topological Psychology", K. Lewin, New York, 1936, Mc-Graw-Hill.

المراجع

1. Brown (J.F.) : "Psychology & The Social Order", 1938, New York, McGraw-Hill.
2. Crafts (L.) & others : "Recent Experiments in Psychology", 1938, New York, McGraw-Hill.
3. Ellis (W.) : "A Source Book of Gestalt Psychology", 1938, New York, K.P.
4. Flugel (J.C.) : "A Hundred Years of Psychology", 1935, Andover, Duckworth.
5. Koffka (K.) : "Principles of Gestalt Psychology", 1935, London, K.P.
6. Krech & Crutchfield : "Theory & Problems of Social Psychology", 1948, McGraw-Hill, New York.
7. Lewin, (K.), : "A Dynamic Theory of Personality", 1935, New York. McGraw-Hill.